سلسلة لباب التزكية (٤)
هدي السلف الصالح في التربية
وسائل عملية

أول التدبر

على الناس أن يتـــــلقوا معنى كلام اللّه؛ كـــما تلقاه الصحابة رضي الله عنهن فإنهم كانوا إذا قرأوا عـــشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتـــجاوزوها حتى يعرفوا، ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل

بقلم فضيلة الشيخ
د. طالب بن عمر بن حيدرة الكثيري
رئيس المجلس العلمي للإفتاء برابطة أهل الحديث باليمن

أول

التدبـــــــر

بقلم فضيلة الشيخ

د . طالب بن عمر بن حيدرة الكثيري

أول التدبر[1]

أهمية علم التفسير:

علم التفسير أجلّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها، وأوجبها، وأحبها إلى الله، لأن:

(١) الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته.

(٢) وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب.

(٣) وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويهيئ الله له أطيب الحياة، والباقيات الصالحات .

القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير:

على الناس أن يتلقوا معنى كلام الله؛ كما تلقاه الصحابة ﷺ، فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا، ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل:

(١) يعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه، وأن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها.

(٢) ولينظر القارئ في موضوع الآية:

[1] . راجع للاستفادة الأصل: عشر قواعد لتدبر القرآن، وأصلها مستفاد من رسالة القواعد الحسان في تفسير القرآن، للسعدي.

أ- فإن كانت من آيات الأخبار؛ فليؤمن:

- بما احتوت عليه من العقائد والأخبار.

- وليطبقها على جميع ما يشهده من الحوادث والوقائع الواقعة عليه أو على غيره.

ب- وإن كانت من آيات الأوامر والنواهي والأخلاق؛ فليحاسب نفسه:

- هل هو قائم بها، أو مخل بحقوقها ومطلوبها؟.

- وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ والتخلص من الأمور الضارة؟ .

القاعدة الثانية: معرفة قواعد العموم:

فإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل؛ ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران .

ومن قواعد العموم:

أ- الألف واللام الداخلة على الأوصاف؛ كقوله تعالى: (العليم)، ,(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).

ب- إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام؛ كقوله: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً }، وقوله: { يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً }.

ج- المفرد المضاف؛ كقوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ }.

د- حذف المتعلق المعمول فيه يفيد تعميم المعنى المناسب له؛ كقوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ } .

القاعدة الثالثة: مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام:

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ على ذكره، وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع:

- أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني.
- فإذا فهمتها فهماً جيداً، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها .
- وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها؛ وداوم على هذا التفكير، حتى تصير لك ملكة جيدة.

أ- منها: في أسماء الله الحسنى [الرحمن الرحيم] فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمة، وسعة رحمته، ويدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة.

ب- وكذلك قوله عن أعداء رسول الله: { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا }، يدل على ظنونهم بالله، وأن الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته. وأمثلة هذا الأصل واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.

القاعدة الرابعة: يختم الله الآيات بأسمائه الحسنى؛ ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم :

فتجد آية الرحمة مختومةً بصفات الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر، فالأسماء الدالة على العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله تعالى، والأسماء الدالة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعاً في فضل الله ورجاءً لرَوْحِه ورحمته، والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبة ووداً وتألهاً وإنابة لله تعالى، والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

- ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك، فقال { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وفي هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه، فإنه تعالى يتصرف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حجر عليه في شيء من ذلك .

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

القاعدة الخامسة: في مقاصد أمثلة القرآن:

وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة؛ كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين.

- فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وإن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض.

- ومثَّل الله الأعمال بالبساتين، ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع، فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل من حياة القلوب الطيبة، وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عملُه كل زوج بهيج .

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات .